

التفسير المطول - سورة البقرة ٠٠٢ - الدرس (٩٥-٤٩): تفسير الآيات ١٤٨ - ١٥٣، حرية

الاختيار

لضيالة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٣-٠٧-١٩٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة البقرة .

من حَمْلِ اللَّهِ الْإِنْسَانُ وَالْجَانُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ الْمُخْلُوقَاتِ حِرْيَةُ الْإِخْتِيَارِ:

مع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَكُلُّ وِجْهٍ هُوَ مُوْلَيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، منح الله الإنسان والجان من بين كل المخلوقات حرية الاختيار، لأن الله سبحانه وتعالى عرض:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُوهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلُوهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

كان الإنسان ظلوماً جهولاً إذا خان الأمانة ولم يحملها، سخر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه لأنه قبل حمل الأمانة، وأنه قبل حمل الأمانة جعل الله الكون كله تجسيداً لأسماء الله الحسنى، ومظهراً لصفاته الفضلى، وأنه قبل حمل الأمانة منحه نعمة العقل أداة معرفة الله، وأنه قبل حمل الأمانة أعطاه شهوةً من أجل أن تدفعه صابراً أو شاكراً إلى الله عز وجل، فهي فوق محركة، وأنه قبل حمل الأمانة منحه حرية الاختيار كي يؤمن عمله، وأنه قبل حمل الأمانة فطره فطرة عالية تدل على خطئه، وأنه قبل حمل الأمانة أنزل الله على رسوله كتاباً هي منهج تفصيليًّا لحياته .

عندما قبلَ الإنسان حمل الأمانة منحه الله الكون وسخّرَه تسخيرين :

ما دام الإنسان قد قبلَ حمل الأمانة منحه الله الكون، وسخّرَه تسخيرين ؛ تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، ومنحه نعمة العقل، ومنحه نعمة الفطرة، ومنحه الشهوة التي تدفعه إلى الله عزَّ وجلَّ، ومنحه حرية الاختيار ليثمن عمله، ومنحه أيضاً شرعاً حكيماً دقيقاً ومنهجاً تفصيلياً، لكن أبرز ما في حياة الإنسان أنه مخَّير:

(ولكلَّ)

من بنى البشر:

(وجْهَةُ هُوَ مُولَّيْهَا)

لا ينبغي أن نفهم أبداً أنَّ هو تعود على الله عزَّ وجلَّ، لأن سياق الآية ينفي هذا المعنى:

(هُوَ مُولَّيْهَا فَاسْتَبِّعُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة هي لله، ليس هناك تناقض بين أول الآية وبين آخرها، الوجهة بيدكم:

(ولكلَّ وجْهَةٍ)

الإنسان مولَّيهَا، أي أنك تتمَّتع في الدنيا بحرية الاختيار، ولكن هذه الحرية تعد بشكلاً أو بأخر سبب سعادتك الأبدية، أنت حرُّ، ما معنى حر؟ أي أن بإمكانك أن تؤمن أو أن لا تؤمن، بإمكانك أن تكون صادقاً أو كاذباً، بإمكانك أن تكون مستقيماً أو منحرفاً، بإمكانك أن تكون محسناً أو مسيئاً، بإمكانك أن تكون مخلصاً أو خائناً، بإمكانك أن تكون منصفاً أو جادداً، بإمكانك أن تصلي أو أن لا تصلي، أن تأتي إلى المسجد أو أن تذهب إلى الملهى، أن تغضَّ بصرك أو أن تُطلق بصرك، أن تأخذ ما ليس لك أو أن تكتفي بما هو لك، أن تكون ولداً باراً أو أن تكون ولداً عاقاً، أن تكون شريكاً مخلصاً أميناً أو أن تكون شريكاً خائناً خبيثاً، أن تكون أباً منضبطاً مربياً لأولادك أو أن تكون أباً مسيئاً لهم.

معنى حرية الاختيار:

معنى حرية الاختيار أنه بإمكانك أن تفعل أو أن لا تفعل، أن تكون هكذا أو هكذا. متى يأمرك الله عزَّ وجلَّ؟ لا يأمرك إلا لأنَّه خيرك، فمثلاً هل من الممكن أن نبني جدارين على عرض إنسان تماماً، نأخذ عرضه تماماً ثمانية وستين سنتيمتراً، ثم نبني جدارين ونقول له: امش في هذا الطريق، ثم خذ اليمين . يقول لك: أيُّ يمين هذا؟ أنا في ممر إجباري، لا أستطيع أن أحيد لا يمنة ولا يسراً . أما ما دام هناك أمر إلهي أفعل، ونهي إلهي لا تفعل، إذاً أنت مخَّير .

أثمن شيء في مقومات التكليف هو حرية الاختيار، بهذه الحرية يمكنك أن تختر طاعة الله، يمكنك أن تختر كتاب الله؛ تقرأه وتعلمه، يمكنك أن تختر طريق الجنة، يمكنك أن تكون في الجنة إلى أبد الآستان، كل هذا بسبب أنك مخَّير .

إذا نال طالب الشهادة الثانوية وقلنا له: بإمكانك أن تذهب إلى أي مكان في العالم وتلتحق بأعلى جامعة، وتعود في أعلى منصب، وفي أبهج حياة، بإمكانك فأنت مخير . لأن الإنسان مخير فسبيل السعادة الأبديّة مفتوحة أمامه:

(ولَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُؤْلِيهَا)

دخلت إلى غرفة فيها مليون قطعة ذهبية، و مليون قطعة ذهبية من عيار أقل، و مليون قطعة ذهبية من عيار أقل، و مليون قطعة نحاسية مُعمّسة بالذهب، و مليون قطعة نحاسية بلا ذهب، و مليون قطعة من أخس المعادن، قلنا لك: اختر ما شئت . أنت مخير، فالذي أخذ قطعة الذهب ذات العيار العالي يكون ذكيًا . هو مخير، كلمة مخير كلمة كبيرة جداً، لك أن تختار ما تشاء، لك أن تختر أطيب شيء، وأثمن شيء، وأدوم شيء:

(ولَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُؤْلِيهَا)

الدنيا كلها صفر مقارنة بالأخرة :

أنت مخير، بإمكانك أن تكون زوجاً كاملاً أو زوجاً ناقصاً، أما كاملة أو أما مهملاً، معلمًا مخلصاً أو معلمًا مُسيّباً، أبداً:

(ولَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُؤْلِيهَا)

هل من الممكن أن تقول لراكب في السيارة في المقعد الخلفي: احرف المركبة إلى اليمين رجاءً؟ يقول لك: أبيدي المقود؟! قل للسائق . من توجّه الكلام كي تتحرف المركبة لليمين؟ من بيده المقود . يقول الله عزّ وجل:

(ولَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُؤْلِيهَا)

على من تعود هو، على الله أم على الإنسان؟ تتمة الآية :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة بيد الله لما كان من معنى لقوله تعالى :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يمكن أن تصل إلى الجنان عن طريق حرية الاختيار، إلى الأبد، ولا تنسوا - وإن كان الشيء ذكرته سابقاً - أن هذا المصحف لو وضعنا واحداً في طرفة، وكل ميليمتر صفر، عندنا تقريباً أربعين صفرأ، أربعين ضرب عشرة أربعين صفر، كم هذا الرقم؟ واحد أمامه أربعين، أول ثلاثة ألف، ثاني ثلاثة مليون، ثالث ثلاثة ألف مليون . فواحد هنا وكل ميليمتر صفر لا آخر المسجد، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حمص، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حلب، إلى أنقرة، إلى موسكو، إلى القطب الشمالي، حول الأرض واحد وأمام كل ميليمتر صفر لأربعين ألف كيلو متر، واحد في

الأرض وكل ميليمتر صفر إلى الشمس، مئة وستة وخمسين مليون كيلو متراً، لو نسب أكبر رقم تتصوره إلى اللانهاية فهو صفر، صفر، الدنيا كلها صفر:
((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعْوَضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءٍ))

[الترمذني وابن ماجه عن سهل بن سعد]

أكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّ اجْعُلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الْتَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْنَعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبَيْسَ الْمَصِيرِ).

(سورة البقرة الآية: ١٢٦)

أنت مخير، ولأنك مخير يمكن أن تكسب الأبد، وأكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد .
هذه الدنيا " عرض زائل يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل " .
الغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والقوى يموت، والضعف يموت،
والواسيم يموت، والدميم يموت، والمستغل يموت، والمستغل يموت، وكل إنسان سيموت، كل
مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجلال، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر
مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وكل ابن أنت وإن طالت سلامته يوماً على آلة حباء محمول
إذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

هنا الدقة .

الحرية الثمينة التي هي سبب السعادة الأبدية ليست مستمرة ولكنها منقطعة:

قال تعالى :

((وَلَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُؤْلِيهَا)

أي يا عبادي استغلوا هذه الفرصة، أنت مخيارون، وباختياركم يمكن أن تخترعوا الأبد الجنة التي عرضها السماوات والأرض، يمكن أن تسلموا وأن تسعدوا إلى أبد الآبدية عن طريق حرية الاختيار ؛ ولكن هذه الحرية الثمينة التي هي سبب سعادتكم الأبدية ليست مستمرة، ولكنها منقطعة .
إذا دخلناك لغرفة وقلنا لك: خذ ما تشاء من هذه القطع الذهبية والآلامية، ولكن لربع ساعة فقط، فإذا انشغلت بقراءة مقالة في مجلة، والذهب أمامك، والألماس أمامك، وكله بأسعار فكتائية، والوقت محدد لمدة ربع ساعة فقط، فإذا انتهت هذه الدقائق الخمسة عشر تسحب من الغرفة إلى خارجها،

انتهت الفرصة، الفرصة لسعادة أبدية، ما دمت مخيراً فأنت في بحبوحة، فإذا جاء ملك الموت انتهى الاختيار، وعدت مقهوراً، لأن ربنا عز وجل يقول:

(مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

أنت في الدنيا مخير، وتملك أن تختار هذا أو هذا، أما حينما يأتي الموت ينتهي اختيارك: (وَلَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا))

[الترمذى عن أبي هريرة]

الاختيار مؤقت:

إذا لم يرد الإنسان الآخرة ولا أن يكون عابداً لله؛ بل أراد الدنيا، ماذا ينتظره؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((هُلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا - قَدْ يَأْتِي فَقْرٌ غَيْرُ مُتَوقَّعٍ - أَوْ غَنَّى مُطْفِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَدَّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَانَ فَشَرُّ غَايِبٍ يُنْتَظِرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةَ أَدْهَى وَأَمَرٌ))

[الترمذى عن أبي هريرة]

بادرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، قد سمعت مرأة بالعمر طرفة وهي واقعية، الذي رواها لي شهد وقائعها بنفسه، إنسان بدوي يسكن في شمال جدة عندما توسيع جدة ووصلت إلى قرب أرضه، نزل وباعها إلى مكتب تجاري، خدعاً واحتراها بربع قيمتها، وأنشأ بناءً ضخماً، الشريك الأول وقع من أعلى طابق فنزل ميتاً، والشريك الثاني دهسته سيارة، فانتبه الشريك الثالث وعرف سر هذه المصائب، لأنهم خدوا صاحب الأرض، وأخذوها بربع ثمنها، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر إلى أن عثر عليه، أعطاه ثلاثة أمثل ما كان قد دفعه له، فقال له البدوي: " ترى أنت لحقت حالك ". كل واحد منا يجب أن يتدارك ما فاته الآن هناك فرصة، القلب ينبع، كل شيء يمكن إصلاحه، يمكن أن ترد كل المظالم إلى أصحابها، يمكن أن تطلب السماح من كل من اغتبته، يمكن أن تفعل كل شيء ويعفو الله عنك، ما دمت مخيراً، ما دمت في الحياة الدنيا، ما لم تغدر:

(وَلَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلَّهَا)

الإنسان مخير، وهذا الاختيار مؤقت، فرصة ذهبية لا تعوض، مثلاً إذا ظهر إعلان بالجريدة: أنه من يحب أن يشتري سيارة بمئة ألف - مر سيدس مثلاً - ومعكم أربعة أيام للاكتتاب . ستجد تقريباً مليون شخص ينتظرون فوق بعضهم، لأنها فرصة لا تعوض، بمئة ألف لا توجد مرسيدس ؟ فرضأً:

(وَلَكُلُّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

الآن حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

في قلعة، في بيت فخم، في أعلى منصب، في صحة، في مَعَة، في قوة، في أتباع:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفسٍ وإن تمئن بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نافذةً في جنب مدرع منها ومترسٍ
أراك لست بواقٍ ولا حذر كالحا طب الخابط الأعواد في الغلس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليأس

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

قبل العرس بيوم:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بعد نيل الدكتوراه، قبل أن تعلنها للناس، ولو بأصعب وضع:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

انعدام الحاجز الذي يمنع الموت من الدخول علينا:

الآن في أي مكان تكون، وفي أية مكانٍ تكون، كل مخلوقٍ يموت؛ ملائكة يموت، خفيف يموت، غنيٌ يموت، فقير يموت، صحيح يموت، حاكم يموت، محكوم يموت،نبي يموت، كافر يموت، لا يستثنى من هذا الموت أحد:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

ليس هناك حاجزٌ يمنع لك الموت من الدخول، يروى أنه في عهد سيدنا سليمان كان يجلس عنده شخص، فرأى أحدهم يحذق فيه تحديقاً غير طبيعي، قال: يا سليمان من هذا الذي يحذق بي؟ قال: هو ملك الموت . فانخلع قلبه، وقال له: خذني إلى طرف الدنيا الآخر . من شدة الخوف - هكذا تروي القصة الرمزية - أرسله إلى الهند على بساط الريح فقبضه ملوك الموت بعد يوم هناك، فلما التقى سليمان بملك الموت قال له: يا ملوك الموت لماذا كنت تحذق فيه؟ قال: لأنك معندي أمر بقبض روحه في الهند، ما الذي جاء به إلى هنا؟

الإنسان يذهب أحياناً وفي المطار يتوفى، فرصة العمر ذهب إلى أمريكا - بنظر الناس طبعاً، قد تكون جهنم وبئس المصير - ذهب إلى هناك جاءه ملوك الموت في المطار، قبل أن يدخل المدينة:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

في الطائرة ؛ كان ذاهباً ليحضر احتفال هو وزوجته وأخت زوجته وقعوا في البحر وماتوا:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بطائرة، بسيارة، بباقر، بالبحر، بالبر، في مكتبه، في غرفة نومه، في الحرب، في السير، في احتفال، في المسجد . قبل عدة أشهر عندما انتهت الخطبة، قال بعض الأخوة: رجل جالس في القاعة مات أثناء الخطبة . وهو في الجامع:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

الإنسان هو المخلوق الأول خلق لجنة عرضها السماوات والأرض:

في أية مكان كنت، وفي أي مكان كنت، لا يوجد مكان يستعصي على الله عز وجل:
(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

نحن الآن نتمتع بحرية الاختيار، وهذه الحرية قد تكون سبباً لسعادة أبدية، يجب أن نستغلها، يجب أن نعرف من نحن، فالإنسان هو المخلوق الأول، خلق لجنة عرضها السماوات والأرض:
(ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقك عليك لا تشغلي بما خلقته لك عما خلقتك))

[من شرح الجامع الصغير]

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيعيبني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك على رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلاي إن لم ترض بما قسمته لك فلأنسان عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعجبك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عز وجل تقف عند حدوده:

قال الله عز وجل :

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المثانة صفة تقاوم قوى الشد، والقساوة صفة في العناصر تقاوم قوى الضغط، فالألamas قاسي، أما الفولاذ متين، حبل من الفولاذ قطره ميليمتر يحمل مئتي كيلو، لذلك كل المصاعد الكهربائية والتليفريكات كلها بحاجة إلى الفولاذ، قال الله:

(إِنَّ كَيْدِي مَتَبِّنٌ)

(سورة الأعراف)

أيًّا مهما ظننت أنك قوي، وظليق، وذكي، تصبح بثانية واحدة في قبضة الله، فالإنسان لو تجمّدت قطرة صغيرة، كمية من الدم لا تزيد عن رأس دبوس في بعض شرائين المخ لشلت قواه، أو لفقد بصره، أو فقد الطُّرق، أو فقد الحركة.

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عز وجل تقف عند حدوده:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

المكان لا يقدس ذاته بل يقدسه الله عز وجل :

قضية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام تركت هزةً في أوساط مكة، ذلك لأن المكان لا يقدس ذاته، بل يقدسه الله عز وجل، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله أمرنا أن نقبل الحجر الأسود، لا لأنه عظيمٌ في ذاته، بل لأن الله أمرنا أن نقبله فصار عظيمًا، وأمرنا أن نترجم حجراً آخر رمزاً لإبليس، فالشيء لا يكون مقدساً في ذاته، ولكن يقدس لأمر الله فيه، نحن عندنا دائمًا قواعد: في عدنا أمر مصلحي وأمر إيماني، أحياناً تتحقق مصلحتك في هذا العمل فتفعله، فأنت نفذت أمراً مصلحياً، أمرت أن تشتري هذه العملية لأنها سوف ترتفع مثلًا هذا أمر مصلحي .

الأمر الإيماني لا علاقة له بمصلحتك إطلاقاً، الله عز وجل أمرك، وكل أمر إلهي عَتَّه أنه أمر إلهي، أمر خالق الكون، فكل ما تعرف عن الله عز وجل من عظمة، وحكمة، وعدل، ورحمة، ورأفة في هذا الأمر . فقریش كانت تقول: هذه الكعبة ليست بيت الله بل هي بيت آبائنا وأجدادنا . وكانت مزروعة بالأصنام التي تُعبد من دون الله، فربنا عز وجل أراد أن يُهمل هذا البيت مؤقتاً، وأن يصرف الناس عنه إلى بيت المقدس، فلما آن الأوان أن يعودوا إلى بيت الله الحرام، جاء الأمر بتحويل القبلة، فهذا أمر إيماني، أي يجب أن نطبقه بصرف النظر عن فهمنا له .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق ما يأمره الله عز وجل . هذا أمر إلهي، إلهي إذاً حق، فمثلاً أحب مريض أن يأكل أكلًا معيناً قال له والده، أو قريبه: الطبيب قال لك هكذا؟ يقول: نعم . انتهى، شيء بيده، أقال الطبيب لك هذا؟ إذا كان الطبيب قال، والطبيب موثوق، وعلمه بدرجة عالية، وهو الخبير بجسم الإنسان فالأمر انتهى، هذا الشيء نفعله نحن مع بعضنا دون أن نشعر، أسألت الخبير وقال هكذا؟ نعم . أين

أخذت الآلة ؟ للوكلة . أهكذا نصحوك أن تعمل ؟ نعم، انتهى الموضوع، فبتصلح الآلات، بمعالجة الأجسام، إذا كنت واثقاً من الخبرير وأعطيك أمراً تنفذه طواعية وأنت مرتاح، لأنه خبير، قال تعالى:

(ولَمْ يُبْلِغْكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة أمر إيماني لحكمة يراها الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ)

أمر إيماني، فما معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوْلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ ثَارًا (٦))

(سورة التحريم الآية: ٦)

أي يا من آمنت بي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت بخبرتي، يا من آمنت بحكمتي، يا من آمنت برحمتي، يا من آمنت بعدي، يا من آمنت بحبي لكم افعلوا كذا . هذا أمر إيماني، أي كلَّ ما تعرف عن الله عز وجل في هذا الأمر، إذا الخبرير قال انتهى الأمر، إذا الرحيم قال انتهى الأمر، إذا العليم قال انتهى الأمر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا الأمر الإيماني، فتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة أمر إيماني لحكمة يراها الله عز وجل:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق هو الشيء المستقر الذي لا يتزعزع :

الله هو الحق، وأمره حق، وكتابه حق، ورسوله حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق . الحق الشيء المستقر الذي لا يتزعزع، الشيء الهدف، الشيء النبيل:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن الآية: ٣)

أي أن الحق لابس خلق السموات والأرض، فالحق الشيء الذي لا يزول . حق الشيء استقر، والأمور لا تستقر إلا على الصحيح . الآن خذ كرة وضع بداخلها قطعة رصاص ودرجها، لا

تستقر إلا وقطعة الرصاص في أسفلها - بحسب قانون الجاذبية - قد تدور ، وقد تنطلق من مكان إلى مكان، ولكنها حينما تستقر لا تستقر إلا وقطعة الرصاص نحو الأرض:

(وَإِنَّهُ لِلْحَقٌّ مِّنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

هذه البلاهة، وهذا الانتقاد، وهذا الإراجاف في المدينة، هذا كله بعلم الله عز وجل . الكافر دائماً عدو للحق، يخلق الفتن، ويثير الصلالات، ويثير الشهوات والشهوات، ويعرض، وينتقد، ويطعن، ويتسائل، ويخرج .

توجُّه المسلمين في العالم كُلِّه إلى القبلة:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْתُمْ فُوَلَّوْا وُجُوهُكُمْ شَطَرَهُ)

توجُّه المسلمين في العالم كُلِّه إلى القبلة هذا الشيء يدل على أن المسلمين لهم إله واحد، وبين واحد يعبدون الله فيه، ونبي واحد، وكتاب واحد، وهم على قلب واحد، هذا هو الأصل أو هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في العالم كله، أما حينما يختلفون، ويضعفون، وحينما يتازعون فيفضلون، هذا وضع غير طبيعي .

(لَنَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ)

أي إنكم حينما تنساقون لأمر الله، وتذکرون أن الله يأمر وينهي، وما المؤمن إلا خاضع لهذا الأمر، ومحكوم به، أسقطتم حُجَّةَ المُعترضين بهذا .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

أي أن هذا الذي ي quam نفسه في أن يكون في خندق معاد للحق، هذا ظالم كبير، فأكبر ظلم أن تناهى أهل الحق، أو أن تعرض على حكم الله، أو أن تشکك الناس بكمال الله، أو أن تشکك الناس بأحقية الدين، أو أن تطعن برسول الله عليه الصلاة والسلام .

سمعت أن هناك الآن أسئلة في الإنترت: ما دام النبي كاملاً لم يقول الله له: فاستغفر لذنبك . إذا هو مذنب، استتباطات شيطانية، مع أن الذنب الذي قال عنه العلماء في هذه الآية: أنه كلما أقبل على الله انكشف له حقيقة إلهية لم تكن معروفة عنده، فيستحي من رؤيته السابقة، وهذا هو ذنبه، هو في رقي مستمر، فكلما كشف له حقيقة عن الله عز وجل استحيا برؤيته السابقة، هذا معنى ذنب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

الأمر بيد الله عز وجل :

أشقى الناس هو الذي يضع نفسه مناوئاً للحق، معادياً لأهل الحق، طاعناً في دين الله، مفدياً لبعض ما في كتاب الله، هذا إنسان شيطان .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

حينما نصبو أنفسهم أعداء للحق هؤلاء ظلموا أنفسهم . جندي بسيط، أو نفر بسيط يهاجم أقوى دولة، وهي تنهيه بثانية، تنهي وجوده كله، عندما يطمح الإنسان أن ينawi دولة قوية وهو لا يملك أي سلاح، معنى ذلك أنه ينتحر، فهذا إنسان ظالم، ظلم نفسه أشد الظلم، هذا فيما يتعلق بالبشر، فكيف يكون الإنسان عدواً لله، عدو خالق السموات والأرض، عدو أنبياء الله، عدو كتب الله ؟ فهذا ظالم فقال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِي)

مهما بدوا لكم أقوياء هم ضعفاء، هم: كن فيكون زل فيزول .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة بيس الآية: ٢٩)

إذا أراد أحدهنا قتل حشرة صغيرة، فهل يحتاج إلى استثار؟ كلها ضربة واحدة، حشرة صغيرة لو أردت أن تقتلها فلا تحتاج منك إلا ضربة واحدة، هذا هو المعنى بالضبط:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة بيس الآية: ٢٩)

تصور لعبة السيارات الكهربائية، كل واحد يركب سيارة ويسوقها بقوة، ويضرب رفيقه، وأنت معك قاطع الكهرباء، لو أزلته لقطعت الكهرباء ولجمد كل السائقين بمكانهم، حركة صغيرة أو قفت كل حركة، هكذا الأمر بيد الله عز وجل .

في بعض معامل الحديد، رافعات مغناطيسية كهربائية، فمثلاً قطعة مسطحة فرضاً خمسة بخمسة، محاطة بوشيعة كهربائية، فحينما يسري تيار الكهرباء في الأسلام، يتشكل مغناطيس كهربائي يحمل مئة طن، فينقل الحديد من مكان إلى مكان، أما هذه المئة طن لو ضغط عامل الرافعة على الزر أقل من ربع مليمتر وقطع الكهرباء، كله يقع . فتصور هذا المثل، قول الله عز وجل كن فيكون زل فيزول .

الهدى من تمام النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان:

الذي يعادي الله عز وجل، يعادي الدين، يقف له موقف المشكك، يطعن بأهل الحق، يصور الدين شيئاً قدماً مختلفاً، يحاول أن يغري الناس بالدنيا، أن يزهدهم بالأخرة، هذا يتصدى للحق، قال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ)

مهما بدوا أقوياء هم ضعفاء، هم بكلمة ينتهون:

(فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنِي وَلَإِنَّمَا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهُدُونَ)

قال العلماء: تمام النعمة الهدى ؛ فالصحة نعمة، والكافية نعمة، والزوجة نعمة، والبيت نعمة، والسمعة الطيبة نعمة، ولكن هذه النعم كلها زائلة بالموت، تمامها أن تهدي إلى الله، لأنك إن اهديت إليه سعدت في الدنيا والآخرة .

(وَلَإِنَّمَا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهُدُونَ)

إلى الجنة، إن أتممت نعمتي عليكم وصلتم إلى الجنة، ثم يقول الله عز وجل :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ)

منكم، أولاً من بني البشر، ثانياً من قبيلكم، تعرفون صِغَرَهُ، يوم كان طفلاً صغيراً، ثم شبابه، ثم كهولته، كيف كان أميناً وصادقاً، وكيف كان عفيفاً، كل هذه المكارم الأخلاقية التي كان بها دليل أنه كان صادقاً مع الله .

في الآية التالية اتصال بالله وتركيه وهناك منهج تفصيلي أي كتاب وسنة:

قال تعالى:

(رَسُولًا مِّنْكُمْ)

أولاً من بني البشر، ثانياً من أمكم عربي، من بلدكم، تعرفون نسبة وحسبه .

(يَئُلُّو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا)

الدالة على الله عز وجل :

(وَيُرِكِّبُكُمْ)

يطهركم من الشرك، من الشك، من الشهوة، من الكذب، من الفجور، من إساءة الجوار، من انتهاك الأعراض، من الحقد، من الشح، يركيكم أساس الدين التركيه .

(يَئُلُّو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُرِكِّبُكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

الكتاب هو القرآن، والحكمة هي الحديث، صار هناك في الدعوة آيات كونية، أو تكوينية، هذه دالة على الله عز وجل، وهناك اتصال بالله وتركيه، وهناك منهج تفصيلي؛ كتاب وسنة، هذا من أدق الآيات:

(يَئُلُّو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُرِكِّبُكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

النبي الكريم جاء وهدانا إلى الله فعلينا أن نشكر الله عز وجل وندل الناس عليه:

أنتم ماذا ينبغي أن تفعلوا بعد هذا الفضل العظيم؟ قال :

(فَادْكُرُونِي)

أي كما جاء النبي وهاكم إلى الله، ينبغي أن تشكروا الله عز وجل، وأن تدلوا الناس على الله:
(فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَآشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ)

لذلك :

((إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكره في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكره في ملأ خير منه))

[منفق عليه عن أبي هريرة]

قال:

(فَادْكُرُونِي)

أي :

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ ثُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٠٢)

قال: "أن تذكره فلا تنساه، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره "، هذا معنى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ ثُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٠٢)

أهم شيء في الدين التزكية:

قال تعالى:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا)

وقال:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمْ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لِفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(سورة آل عمران)

طبعاً هناك آياتان، هذه الآية :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُهُمْ مَا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

أخواننا الكرام، أهم شيء في الدين التزكية، لأنه عندما أشترى ربنا عز وجل على النبي عليه الصلاة
والسلام قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

الخلق الحسن ذهب بخيري الدنيا والآخرة .

لن نستطيع التقرب إلى الله إلا بكمال مشتق منه من خلال اتصالنا به:

العبرة أن تكون عفيفاً، صادقاً، أميناً، مُنصفاً، حليماً، عفواً، رحيمًا، متواضعاً، بهذا تقترب من الله، وما معنى قوله تعالى:

(وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

أي أنكم لن تستطعوا أن تتقربوا إلى الله إلا بكمال مشتق منه من خلال اتصالكم به:
(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادْكُرُونِي أَدْكِرْكُمْ وَاسْكُرُونِي لِي وَلَا تَكْفُرُونَ (١٥٢))

لذلك يقول الله عز وجل :

(مَا يَقْعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

أي أنك حينما تؤمن، وحينما تشكر، حققت الهدف من وجودك .

إذا آمنت وشكrt حققت الهدف من وجودك:

هذه الآية دقيقة جداً :

(مَا يَقْعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلَيْمًا)

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

منحك الله عز وجل الوجود، منحك الكون، منحك الزمن، منحك الحرية، منحك العقل، منحك الفطرة، منحك الشرع، منحك الشهوة، منحك الاختيار، هذا ينبغي أن تشكره عليه . أو بمثل آخر، قدم لك إنسان هدية آلة ثمينة، فأنت بين الإعجاب بصنعته - هي من صنعه - وبين أن تشكره على أنها هدية، ينبغي أن ينتابك شعورين ؛ شعور الامتنان وشعور التعظيم، أنت حينما تؤمن وتشكر حققت الغاية من وجودك، بل إن الله قد سخر لك الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريف، وتسخير تكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكrt حققت الهدف من وجودك .

(فَادْكُرُونِي أَدْكِرْكُمْ وَاسْكُرُونِي لِي وَلَا تَكْفُرُونَ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣))

هذه معية خاصة ؛ معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، هذا الذي يصبر يعرف الله، الصبر معرفة، تماماً كما لو جلس إنسانٌ على كرسي طبيب الأسنان، وكان إنساناً بالغاً عاقلاً راشداً، وعنه مشكلة بقلبه لا تسمح للطبيب أن تعطيه مخدرأً، أبلغه ذلك، سوف يقلع هذا السن، وهناك ألمٌ شديد، ولكن التخدير يؤذني قلبه، فلأن هذا المريض عاقل، وراشد، ويعرف مصلحته، يثق بالطبيب، تحمل

هذا الألم، فالتحمُّل دليل معرفة، فمعنى الصبر أنك تعرف الله، تعرف حكمته، وتعرف رحمته، وتعرف عدله، وتعرف أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لهذا تصبر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُو بِالصَّابَرِ وَالصَّلَاةِ)

الصبر صبر، أما الصلاة إقبال، فإذا حرمت الدنيا ووصلت إلى الله، هذا الوصول ينساك كل الدنيا، استعن بالصبر، الصبر سلبي، ولكن أداء الصلاة إيجابي، أنت حرمت نفسك من هذا الكأس، لكن هناك شرابةً أطيب، تركت شيئاً لله فجاءك خيراً منه .

(اسْتَعِينُو بِالصَّابَرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

معهم معية خاصة، معهم بالحفظ، والتوفيق، والتأييد، والنصر .

والحمد لله رب العالمين